مشكلة تأريخ عمل "عن الأسلوب " المنسوب إلى ديمتريوس الفاليري

أ. / شيماء إيهاب السيد محمود
كلية الآداب – جامعة القاهرة
تحت إشراف أ.د./ علاء صابر

Abstract:

The Dating of work "On Style" attributed to Demetrius of Phalereum

Scholars have disagreed on the dating of the work "On Style." Traditionally, it has been dated to the early Hellenistic period, but recent evidences made this date doubtful for some researchers, prompting them to seek both external and internal evidences to provide an approximate date for the work. Scholars' proposed various dates: some argue that the style of the work is not purely Attic, supporting a third-century B.C date. Others point out that it was not mentioned in the third-century list of works recorded by Diogenes Laertius, and that the text does not reference any of the critical issues prevalent at the time. The matter is further complicated by the popularity of the name "Demetrius" among the Greeks, so attributing the work to Demetrius of Phalerum became doubtful. Some researchers have even pointed to the mention of writers from the second century B.C within the text as evidence for a similar dating. "The third group of researchers attempted to bridge the gap between the two proposed dates for the work, dating it to the first century B.C.

Key words: The date of Demetrius – On style-Demetrius of Phalereum .

الملخص :

اختلف الباحثون حول تأريخ عمل " عن الأسلوب" المنسوب إلى ديمتريوس الفاليري فقد اعتادوا تأريخه في الفترة الهللينستية المبكرة، ولكن ثمة دلائل حديثة جعلت هذا التاريخ غير مقنع للبعض مما دفعهم للبحث عن دلائل خارج النص وداخله لمحاولة إعطاء تاريخ تقريبي للعمل. وقد تفاوت التأريخ بين الباحثين فمنهم من وجد أن أسلوب العمل ليس أتيكيًا خالصًا وهو ما أكد على التأريخ في القرن الثالث قبل الميلاد، ومنهم من رأى أنه لم يذكر في قائمة أعمال القرن الثالث التي وردت عند ديوجينيس لائرتيوس وأن النص لم يذكر أي من القضايا النقدية التي كانت شائعة آنذاك. ومما جعل الأمر أكثر تعقيدًا هو انتشار اسم ديمتريوس عند الإغريق مما جعل نسب العمل إلى ديمتريوس الفاليري أمر مشكوك فيه أيضًا. ومنهم من استدل بأسماء كتاب في القرن الثاني قبل الميلاد تم ذكرهم في العمل فأرجع تأليف العمل لنفس التاريخ. أما الفئة الثالثة من الباحثين فقد حاولت تقريب المسافة بين التأريخين المقترحين للعمل فقاموا بتأريخه في القرن الأول قبل الميلاد.

الكلمات المفتاحية : تأريخ ديمتريوس – عن الأسلوب – ديمتريوس الفاليري.

المقدمة :

يعدّ هوية المؤلف وتاريخ تأليف النصوص القديمة من أكثر القضايا تعقيدًا في مجال الدراسات الأدبية، حيث إن غياب الأدلة القاطعة وندرة المصادر يجعل من الصعب التوصل إلى استنتاجات دقيقة. ومن بين الأعمال التي شهدت نقاشًا مطولًا حول هويتها وتأريخهاهو عمل "عن الأسلوب" المنسوب إلى ديمتريوس الفاليري. حيث أصبح تأريخ العمل في القرن الثالث قبل الميلاد غير مقبول لعدة أسباب منها تغافل الكاتب ذكر قضايا نقدية شهيرة موجودة آنذاك مثل انتشار الأسلوب الأسيوي المزخرف الذي يتعارض مع الأسلوب الأتيكي الذي لم يعد موجودًا بالشكل

المعروف في العصر الكلاسيكي. ولم يصل الباحثون إلى تاريخ قاطع أو متفق عليه ولكن ما أجمعوا عليه أن النص يمتد التاريخ المحتمل لتأليفه من القرن الثالث إلى القرن الأول قبل الميلاد.

لم يختلف النقاد على أهمية عمل " في الأسلوب" كعمل مميز في النقد الأدبي، واختيار موضوع الأسلوب جعل من العمل وثيقة نقدية حفظت لنا ملاحظات نقدية مهمة عن الكثير من أعلام الأدب الكلاسيكي، فهو عمل متقن قام مؤلفه بصنع خطة منظمة لكتابته وترتيب ينم عن ناقد على دراية واسعة بالأدب الإغريقي الكلاسيكي والسكندري المبكر. إنه ليس فيلسوفًا وليس ريطوريقيًا ولم ينبع اتجاهه في الأدب من قاعات المحاكم أو القضايا الجدلية وإنما عمله هو نظرية أدبية أو كما نقول نقد أدبي، وهو بالتأكيد ليس ناسخًا أو ناقلاً من مصادر أخرى ولكنه على دراية كاملة بأرسطو وثيوفراستوس من الدرجة الأولى.[١]

إنما الخلاف بين الباحثين حول هوية المؤلف إن كان هو ديمتريوس الفاليري أو ديمتريوس آخر، وبالتالي هل تأريخ العمل في القرن الثالث قبل الميلاد هو تأريخ سليم أم أنه كُتب في مرحلة متأخرة عن هذا التاريخ، وسوف تقوم الباحثة بعرض الآراء البارزة في هذا الخلاف وإيجاد دلائل من داخل النص تؤيد أو ترفض هذه الآراء.

تنسب المخطوطات القديمة هذا المقال إلى ديمتريوس الفاليري صديق ثيوفراستوس، الذي حكم أثينا نائبًا عن الملك المقدوني كاساندر (Cassander) في الفترة من ٣١٧ إلى ٣٠٧ ق.م. ثم لجأ بعد ذلك إلى بلاط الملك بطليموس الأول سوتير في الأسكندرية حيث ساهم في إنشاء مكتبة

[1] - G.M.A Grube(1965), The Greek and Roman critics ,university of Toronto,Britain,p119

الأسكندرية . ليس هناك ما يؤكد أنه مؤلف مقال " عن الأسلوب". ولقد حاول كل مصدر من المصادر المختلفة نسبها إلى مؤلف مختلف أيضًا. حتى كانت بدايات القرن الحالي حيث رأى الدارسون إرجاع تأريخ كتاباتها إلى العصور الرومانية، فيما بعد القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي. لكن جاء بعض الدارسين بعد ذلك فرأوا إرجاع تأليفها إلى تاريخ مبكر. فمنهم من يرى أنها كُتبت في القرن الثالث ومنهم من يرى أنها كُتبت في القرن الثاني قبل الميلاد. لكن استقر رأي بعض الدارسين على أنها كتبت في عام ٢٧٠ ق.م. تقريبًا أو بعد ذلك بقليل.[١]

ولذلك علينا أن نطرح وجهات النظر المختلفة وترجيح أحدها بالدلائل من خلال دراسة النص؛ يؤكد "جولد" (Goold)أنه لا يوجد عمل في قائمة "ديوجينيس لائرتيوس" تحمل اسم "περὶ ἑρμηνείας " تنسب إلى ديمتريوس الفاليري الذي كتب بالأتيكية وهو عكس ما نرى في العمل الذي ربما كتبه ديمتريوس والذي لم ترد عنه أي إشارة قبل العصر المسيحي. إن الإشارة في عمل فيلوديموس (Philodemus) "عن الخطابة" "περὶ ῥητορικῆς" أن الجمل الطويلة يصعب إلقاؤها والذي انتقده ديمتريوس عند إيسوكراتيس (Isocrates) – كما ذكر فيلوديموس – لا نجد لها أي أثر في عمل "عن الأسلوب" حيث ذكر في ثلاثة مواضع الأولى مع جورجياس (Gorgias) وألكيداماس (Alcidamas) كمثال على استخدام الجمل الطويلة، وفي موضعين آخرين كمثال على الكتاب الذين يتجنبون التنافر الصوتي الناتج عن التقاء

[١] – عبد المعطي شعراوي (١٩٩٩)النقد الأدبي عند الإغريق والرومان،مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٨٩

حرفين صائتين. ولهذا نتأكد أن ديمتريوس الذي ذُكر عند فيلوديموس والذي ازدهر بين عامي ٧٠- ٤٠ ق. م. هو ديمتريوس الفاليري وليس ديمتريوس مؤلف هذا العمل.[١]

أما "جروب" (Grube) فيرى أن نقد ديمتريوس الفاليري للجمل الطويلة وأنها تجعل من يلقيها يلهث كأنه في سباق كان يقصد بها إيسوكراتيس دون أن يذكر اسمه لأنه معروف بين أقرانه بأنه صاحب الجمل الطويلة. وثمة دليل آخر في عمل فيلوديموس أنه على دراية بالأساليب الأربعة الخاصة بعمل ديمتريوس دون غيره مما يثبت أنه اطلع عليه وهو ماكان يقصده في إشاراته النقدية . [٢]

وفي موضع اخر نجد أن وجهة نظر مؤلفنا لا تبدو من الفترة اليونانية-الرومانية، السابقة لهيرموجينيس (Hermogenes) وربما اللاحقة لديونيسيوس(Dionysius). لا يبدو أن ديميتريوس يشترك في وجهة النظر أو اهتمامات شيشرون (Cicero) و ديونيسيوس و هوراتيوس(Horatius)، أو خلفائهم. هؤلاء كانوا يتبنون وجهة نظر إيسوكراتيس البلاغية أن الفلسفة الحقيقية يجب أن تُبنى على التعليم العام، ويصرون على أن الكاتب أو الشاعر أو الخطيب يجب أن يعرف الحياة ويقلدها. أما شيشرون وديونيسيوس فقد كانا شديدي الرفض للأسلوب الأسيوي ولا توجد مثل هذه المقارنات النقدية التي كانت شائعة في دائرة ديونيسيوس وكايكيليوس (Caecilius).[3]

[1] -G.P.Goold(1961),A Greek professorial circle at Rome, TAPA,pp 179,180
[2] - G.M.A Grube(١٩٦٤),"The date of Demetrius on style",Phoenix ,pp295,296
[3] - G.M.A Grube(1961),A Greek critic : Demetrius On Style, university of Toronto, Britain,p51

وبالرغم أن العمل لم يُذكر في قائمة ديوجينيس لائرتيوس في القرن الثالث الميلادي التي لم تكن طويلة مقارنة بأعمال ثيوفراســـتوس، فإن ديوجينيس أخبرنا أن ديميتريوس كتب أكثر من أي فيلسوف معاصر له. كما يقول إن ديميتريوس كتب أعمالًا ريطوريقية مثل"πίστεως περὶ"(عن الإيمان) ، " περὶ χάριτος" (عن الرقي) ، " περὶ καιροῦ " (عن الذوق الرفيع)، وقد اعتاد ديمتريوس استخدام كلمة "χάρις " للتعبير عن الأسلوب الراقي.[١]

لا يمكننا أن نبني حجة على تواريخ المؤلفين الذين اســـتشـــهد بهم ديمتريوس حيث إنهم يمتدوا من هوميروس إلى سوتاديس (Sotades) ، في بداية القرن الثالث قبل الميلاد، فقد اعتبرهم حقبة كلاسيكية يجب ذكرها والاستشهاد بها مع إغفال للمعاصرين وهو ما رأيناه أيضًا في عمل نقدي مشابه لديونيسيوس الهاليكارناسي عن ترتيب الكلمات "De compositione verborum " الذي ينسب للعصر الأوغسطي. ولم يذكر ميناندروس (Menander) سوى مرتين، أما سابفو (Sappho) فقد ذُكرت أكثر من مرة، ويرجع تاريخهم إلى القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد. وتم التعرف على جميع الكتاب الذين اســـتشـــهد بهم ديمتريوس باســـتثناء أرخيديموس (Archedemus) وأرتيمون (Artemon)، وهما مرجعان استشهد بهما في الفقرتين ٣٤ و٢٢٣ على التوالي. وعلى الأرجح أن أرخيديموس من تارســـوس(Archedemus of Tarsus) ، وأرتيمون من كســـاندريا (Artemon of Cassandria) ، والذين يرجع تاريخهما إلى النصـــف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد.[٢]

ويخبرنا كل من بلوتارخوس (Plutarch) وستوبايو (Stobaeus) أن ديميتريوس الفاليري نصح بطليموس بقراءة كتب عن الملكية لأنه سيجد فيها النصائح التي لم يجرؤ أصدقاؤه على تقديمها له، مما قد يذكرنا بما ورد في كتاب "عن الأســـلوب" (٢٩٢-٢٩٣) عن كيفية مخاطبة

[1] - G.M.A Grube(1961),p52
[2] -G.P.Goold(1961),p181

الطغاة بحذر. وما يذكرنا بشكل مباشر أكثر بهذه الفقرة بأكملها هو مقطع في كتاب فيلوديموس، الذي يقول إن ديميتريوس، إلى جانب النوع الخطابي السفوسطائي، أضاف إلى النوعين الاستشاري والقضائي من البلاغة "الخطاب الفنّي" الذي يعرف كيف يخاطب جميع الجمهور ويكسب رضا الجميع. ولكن على أي حال، من الواضح أنه أولى أهمية كبيرة لأساليب المخاطبة، وخاصةً مخاطبة المجالس الشعبية والأمراء الحاكمين. ربما تم تناول هذا الموضوع أيضًا في "πρεσβευτικός (كيف تتحدث كمبعوث؟) التي أدرجها ديوجينيس ضمن أعماله، أو في كتاب "عن الذوق الرفيع". الآن، هذا "الخطاب الفنّي" يشبه بشكل كبير ما يقوله ديميتريوس عن التلميح، والذي يربطه أيضًا بشكل محدد بالأمراء والمجالس (٢٨٩-٢٩٣). وهنا مرة أخرى نجد نقطة تواصل واضحة بين ديمتريوس الفاليري وديمتريوس الأخر الذي اعتقد البعض أنه مؤلف العمل. [١]

وقد تكرر اسم ديمتريوس في التراث الأدبي الواسع وكنا نود أن نعرف المزيد عن ديميتريوس الذي خلد هوراتيوس اسمه بشكل غير مشرف في القصيدة الساتيرية العاشرة من الكتاب الأول؛ وعن ديميتريوس التابع للمدرسة المشائية، الذي رافق كاتو الأصغر (Cato) في أشد أوقات محنه. وقد اشتبه البعض، الذين رأوا في ديميتريوس الذي نقصده بأن الإسكندرية وليس روما هي مكان التأليف؛ ورأى آخرون، بالإضافة إلى موريتوس، (أن هذا الشك يتأكد من خلال ديوجينيس لائرتيوس، الذي ذكر في قائمته عشرين شخصية مشهورة باسم ديميتريوس، ويسجل (٥.٥.١١) أن "الثامن هو الأستاذ الذي أقام في الإسكندرية، مؤلف المعالجات البلاغية". ومع ذلك، لا يمكن أن يكون هذا هو ديميتريوس المقصود لدينا: سواء كان ديوجينيس قد نقل مادته البيوجرافية من ديميتريوس من ماجنيسيا (Demetrius of Magnesia) (نحو ٥٠ ق.م.) أم

[1] - G.M.A Grube(1961),p 52,53

لا، فإن قائمته تبدو متسلسلة بشكل عام من الناحية الزمنية، وهذا يتطلب وضع ديميتريوس الذي يقصده ديوجينيس الذي عاش في الإسكندرية وألّف معالجات بلاغية في القرن الثاني قبل الميلاد.[١]

ثمة خطأ آخر يقع فيه "جولد" في حكمه على ديمتريوس. فقد صرح أن موقف ديمتريوس من ديموستنيس مختلفًا عن النقاد السابقين، فإن ديموستنيس عندهم هو الخطيب الأعظم والمثال الحقيقي على كل الفضائل والأساليب. إنما استخدمه ديمتريوس فقط في تحليل الأسلوب الفعال. ولهذا وضع "جولد" ديمتريوس كمعارض للتمجيد الدائم في كل مكان عندما يذكر اسم ديموستنيس في القرن الأول. ولهذا – من وجهة نظر جولد– ابتكر ديمتريوس الأسلوب الفعال ليدرج فيه اسم ديموستنيس وبذلك يكون ضد مبادئ ديونيسيوس آنذاك. إن هذه الصورة التخيلية لجولد لم تدعم بأي دليل من النص، بل على العكس تمامًا أن الاتجاه العام للعمل مخالف لتصور جولد. فلم يكن ديمتريوس معاديًا لديموستنيس أو هجوميًا عليه ولم يقتصر الفصل الخاص بالأسلوب الفعال على ديموستنيس فقط ولكن يرد في مواضع أخرى في الرسالة.[٢]

ويصور "جولد" ديميتريوس في القرن الأول على أنه "معلم بلاغة من المدرسة المشائية". ويضيف "جولد" أن ديونيسيوس يقول إنه وجه مقالات عن المحاكاة إلى شخص يُدعى ديميتريوس (وهو اسم شائع بما فيه الكفاية) ويعلن أن ديمتريوس هذا هو نفس الشخص. وبما أننا لا نعرف شيئًا آخر عن أي من

[1] -G.P.Goold(1961),pp18٨,189
[2] - G.M.A Grube(196٤),p297

هـذين الـرجلين، فـلا يمكـن دحـض هـذا التحديـد بالتأكيـد. لكـن هـذا مجـرد افتـراض تخيلـي – فـلا يوجـد أدلـة قاطعـة علـى أن ديميتريـوس كتـب فـي رومـا فـي زمـن ديونيسيوس؛ ولذلك فهو لا يساهم بأي شيء في مشكلة تحديد التاريخ. [١]

يـذكر "روبـرتس"(Roberts) ٥٣ كلمـة باعتبارهـا تنتمـي إلـى "العصـر مـا بعـد الكلاسـيكي"، حيـث لـم يُعثـر علـى أي منهـا قبـل العصـر السـكندري، وبعضـها لـم يظهـر قبـل العصـر اليونـاني- الرومـاني. وهـذا يُخفـي حقيقـة أن التـأليف التقليـدي متوافـق مـع تـاريخ الإسـكندرية المبكـر. يضـيف أيضًـا ١٦ كلمـة تُسـتخدم بمعنـى "مـا بعـد الكلاسـيكي"، و١٣ كلمـة "خاصـة باللهجـة الأتيكيـة". وفـي ملاحظاتـه، يُـدين المزيـد مـن الكلمـات علـى أنهـا ربمـا أو بالتأكيـد "متـأخرة". لا ينبغـي أن نتوقـع أسـلوبًا أتيكيًـا صـارمًا، بـل مزيجًـا، فـي حـين أن بعـض الأتيكيـات مثـل اسـتخدام المثنـى قـد تظهـر، خاصـة إذا كـان المؤلـف نفسـه مـن أصـل أثينـي، وبـالأخص إذا كـان يميـل إلـى بعـض التكلّـف الخفيـف. "شـذرات" ديميتريـوس الفـاليري لا تقـدم لنـا مسـاعدة هنـا؛ فهـي إشـارات فـي مؤلفـات أخـرى إلـى مـا قالـه، ولا توجـد بينهـا اقتباسـات مباشـرة تقريبًـا، وبالتأكيـد لا يوجـد مـا يعطـي أي دلالـة علـى الأسـلوب. الكلمـات التـي لا توجـد فـي أي مكـان آخـر، مـا لـم تكـن أشـكالها متـأخرة، لا تعتبـر مؤشـرًا علـى التـاريخ أيضًـا؛ سـتة عشـرة منهـا ليسـت عـددًا كبيـرًا فـي رسـالة فنيـة مـن فتـرة غيرممثلـة فـي النصـوص المتبقيـة لـدينا. مثـل هـذه الكلمات تظهر عند أغلبية المؤلفين.[٢]

[1] - G.M.A Grube(1964),p298
[2] -apud G.M.A Grube(1961),p133

نستطيع تتبع كلمة" δεινότης" التي ذكرها ديمتريوس (٣٠١-240) بمعني "الفعال" وهوبمفرده دون غيره من النقاد جعل هذا الأسلوب أسلوبًا مستقلاً واستخدم كلمة "δείνωσις" كمرادف لها. ظهرت الكلمة أولاً عند أفلاطون (Plato) في محاورة فايدروس (Phaederus) مقترنة بكلمة "ἐλεινολογί " بمعني" يثير الشفقة عند الجمهور" أما كلمة " δείνωσις" فتأتي بمعني "يجعل الأمر مرعبًا " ، وتأتي عند أرسطو في مقال "عن الخطابة " أربع مرات أيضًا بمعنى " يجعل الأمر يبدو مرعبًا" وهو حيلة لكسب التعاطف والانتصار على خصمك وجعل جريمته تبدو مرعبة. ولكن ديمتريوس استخدمها لأول مرة بمعنى "فعال" ولم ترد عند غيره بهذا المعنى فقد غير في المعنى الكلاسيكي للكلمة مما يؤكد نظرية أنه كتب العمل في عصر متأخر.[١]

ونجد أنفسنا أمام رأي ثالث يحاول التقريب بين رأي "جروب" الذي يؤكد على تأليف العمل في القرن الثالث قبل الميلاد بناءً على تحديد الكتاب الذين استشهد بهم ديمتريوس في العمل وتواريخهم، ورأي "جولد" أنه عمل من العصر الأوغسطي مستندًا على تواريخ أرتيمون وأرخيديموس؛ يحاول"ريست" أن يقرب الفجوة بين التاريخين التي تصل من مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة عام وذلك عن طريق فقرة وردت عند ديمتريوس نفسه (٢٢٣) بأن أرتيمون هو محرر قوائم أعمال أرسطو وبمتابعة النسخ التي ظهرت لهذه القوائم وتحديد أن أرتيمون من كاساندرا هو جامع للكتب وله عملان في هذا المجال وقد تم تأريخ أعمال أرتيمون في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد وذلك هو التاريخ المحتمل لعملنا "عن الأسلوب".[٢]

---

1 - G.M.A Grube(1961),p136

2 -RIST J.M (1964),Demetriud the stylist and Artemon the compiler,Phoenix18,p 7

ويشغل تأريخ العمل ذهن الباحثين إلى الآن هناك ملحوظة عند " كيم بافينورث" معلقًا على الفقرة ١٣ في عملنا حيث يتحدث ديمتريوس عن مقارنة بين الجمل القصيرة وبين "القبب" أو " الأبنية ذات الأسطح المستديرة " وفي القرون الأربعة قبل الميلاد لم تكن تعرف هذه النوعية من الأبنية ولم يعرفها أوربيون العالم القديم ولم تنتشر إلا في القرن الأول الميلادي. يقول "كيم" أنها ربما تكون ملحوظة بسيطة وربما لا تعتبر ملحوظة علمية ولكن ربما تساهم في تحديد تاريخ تقريبي للعمل الذي يعتبر من أكثر الأعمال خلافاً في تأريخها.[١]

وبعد عرض الدلائل الداخلية والخارجية لأهم الباحثين في موضـــوع تأريخ العمل نجد أن العمل يمتد في حقبة زمنية بعد الفترة الكلاسيكية مباشرة حيث يقترب في شكل عرضه للموضوع لمقالات أرسطو النقدية ويظهر بوضوح تأثره الشديد بأعمال ثيوفراستوس النقدية، أما عن المحتوى فهو يقدم محتوى نقدي مميز ومبتكر ويكشــف عن ناقد متمكن من أدواته ودارس ذي خبرة وذكاء، وقد نميل لتحديد التاريخ للحقبة الهللينســتية المبكرة نظرًا لاقترابه من ثيوفراســتوس ووجود اللمحات الكلاســيكية التي مازالت تســيطر على أســلوب الكاتب مع بعض اللمحات الجديدة التي بدأت في العصر الهللينستي.

[1] -Kim Paffenorth(1994), ANote on the dating of Demetrius' on Style,CQ, vol.1.pp280,281

المصادر والمراجع

أولاً : المراجع الأجنبية :

- G.P.Goold(1961),"A Greek professorial circle at Rome", TAPA,92.
- G.M.A Grube(1961), A Greek critic : Demetrius On Style, university of Toronto, Britain.
- G.M.A Grube(196٤),"The date of Demetrius on style",Phoenix,18.
- G.M.A Grube(1965), The Greek and Roman critics ,university of Toronto, Britain.
- Kim Paffenorth(1994), "A Note on the dating of Demetrius' on Style",C.Q, vol.1.
- RIST J.M (1964),"Demetriud the stylist and Artemon the compiler",Phoenix,18.

ثانيًا: المراجع العربية:

- عبد المعطي شعراوي (١٩٩٩) ، النقد الأدبي عند الإغريق والرومان، مكتبة الأنجلو المصرية .